

قصة حادثة للكاتب نجيب محفوظ كان يتكلّم في تليفون الدُّكَان بصوت مُرتفع، يُسمَع صوْتُه رغم ضوضاء شارع الجيش الصاخب، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدُّكَان ليبعد ما أمكن عن الضوضاء، ثم ختم حديثه بقوله: "إنتظري سأحضر فوراً". طويل القامة نحيلها وروي الجبهة والعينين. مُكَوِّر الذقن وأما صلعته فلم يبقِ فوق مرأتها إلا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه، وقد أفسح مظهره عن إهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان للذات، على ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. وبدا أنه ينظر إلى الداخل لا إلى الطريق ثم مال يُمْنَة بمحاذة صف من اللوريات الواقفة نسق التوار حتى وجد منفذًا إلى الشارع، مرق من المنفذ ليعبر الشارع إلى ضفته الأخرى، وما كاد يجاوز مُقدمة اللوري الأخير حتى شعر بسيارة فورد تندفع نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، ولكنَّه لسبب ما لعله المفاجئة أو سوء التقدير وثبَّ إلى الأمام وهو يهتف "يا ساتر يارب" وجرت الحوادث متلاحقة. ندَّت عن الرجل صرخة كالعواء وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة الواقفين على التوار، وفوق إفريز محطة الترام صدر عن فرملة الفورد صوت محشِّر ممزق وهي تزحف على الأرض بعجلات متوقفة جامدة وهرع نحو الضحية في ثوانٍ عشرات وعشرات كأسراب الحمام، حتى تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج، ولم ينبعض جسم الرجل بحركة واحدة، وكان منكفيًا على وجهه ولا يجرؤ أحد على لمسه وإنحدر رجليه ممدودة إلى آخرها والأخرى منثنية منحسرة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر، وقد فقدت حذائهما، الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتارًا ثم يهوي فوق الأرض كشيء، وبسرعة وبدون أن ينظر إلى يساره كما يجب، وإذا لم يجد وجهًا مستجيبيًا عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". لكنه طار في الهواء والعياذ بالله وجاء شرطي مسرعاً وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآدمي، نفذ منها وهو يصبح في الناس أن يبتعدوا خطوات. خطوات فقط وعيتهم لا تحول عن الرجل ولا تخفي حِدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سبقي هكذا حتى يموت ونحن لا نفعل شيئاً فأجابه الشرطي بلهجة رادعة "أقل لمسة قد تقتله، وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق اليه" واعتراض الحادث جانب الطريق وأضطررت السيارات إلى الإلتلاف حول السور البشري مشاركة الترام في ممشاشه. فضاق بها حتى تحركت في بطء شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتداخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركبها تلعلت أعين إلى الضحية في اهتمام وأعين تجنبت النظر في جذع. وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلوذنية فاتسعت الحلقة وغادرت القوة السيارة إلى الرجل الملقي وكان الضابط حاسماً وحازماً، فأصدر أمراً بتفريق المتجمعين، وتحفص الرجل بنظرية شاملة وسائل الشرطي: "المحضر الإسعاف؟" وإن لم تكن ثمة ضرورة إلى السؤال فإنه لم يلق بالاً إلى الجواب، وتسائل مرة أخرى: "هل من شهود؟" فتقديم ماسح أحذية وسائق لوري وصبي كبابجي كان عائداً بصينية فارغة، وأعادوا على مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، وتحفصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء، ثم نهض متوجهاً إلى الضابط فبادره هذا قائلاً: "أظن يجب نقله إلى الإسعاف"، وأدرك الضابط ما يعنيه ذلك على حين استطرد رجل الإسعاف قائلاً: "أعتقد أن الحالة خطيرة جداً". وعندما أرقد الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، ثم التفت إلى مساعدته قائلاً: "إصابة خطيرة في الرئة اليسرى، عملية! فهز رأسه قائلاً: إنه يحتضر! وصدقت فراسة الطبيب فقد تحرك الرجل حركة شاملة كالرعشة وأضطررَّ صدره اضطراباً متلاحمًا متحشرجاً، ثم شهد شهقة خفيفة واستكأن، وجاء ضابط النقطة والرجل ما يزال راقداً بكل ملابسه، عدا فردة الحذاء المفقودة، وقال الطبيب: "هذه الحوادث لا تنتهي"، فقال الضابط وهو يوميء إلى الفقيد: "شهادتك الشهود ليست في صالحه"، وشرع في عمله على حين بسط له الشاويش المرافق له ورقة فوق منضدة، ودس الضابط يده برفق في جيب الجاكتة الداخلي فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضى يفتشها جيباً جيباً، ويملئ على الشاويش: "خمسة وأربعون قرشاً من العملة الورقية، روشتة للدكتور فوزي سليمان"، وألقي نظرة عابرة على أسماء الأدوية، إذ أن تعليمات شبيهة صدرت إليه من طبيبه في نفس الشأن، ثم واصل إملاؤه وأصابعه تستخرج من الحافظة محفوظاتها. ولما لم يجد شيئاً آخر في الحافظة قال بضمير: "لا توجد بطاقة تحقيق شخصية"، وانتقل إلى الجيب الداخلي وما لبث أن قال في فتور: "ثلاثة قروش ونصف عملة معدنية" توالي التفتيش وتتابع الإملاء، فأأمل أن يصادف فيها ما يستطيع أن يستدل به على شخصية الرجل. نظر أول ما نظر على الإمضاء ولكنه لم يزد عن "أخوك عبد الله"، فعاد إلى رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة "إلى أخي العزيز أダメه الله" فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بدعاً من قرائتها. وامتد بصره فوق الوجه الأسطر إلى الوجه الباهت المشئوب بزرقة مخيفة المغلق كرس، ذلك الذي تحقق له أكبر أمل في الحياة وتسائل الطبيب عثرت على شيء؟ فانتبه إلى نفسه وابتسم ابتسامة إستهانة ليدل على اعتياده أي شيء وقال "اليوم تحقق لي أكبر أمل في الحياة" بذلك بدأت الرسالة وعاد إلى القراءة متجنباً

النظر إلى عيني الطبيب، انزاحت جميعاً والحمد لله، وها هو علي يتوظف، وكلما ذكرت الماضي بمتاعبه وكده وشقاءه أَحمد الله المنان، وهذا هو النصر المبين" ، واسترق النظر مرة أخرى إلى الإنسان الراحل الذي لا يدرى أحد مقره، الذي يثير الدهشة بصمته و أنزعاله وارتداده العميق إلى المجهول،